

## المسيحي والدولة

### بقلم الأب باسيلوس محفوظ

تحتل علاقة المسيحيين كرعايا بصفاتهم الفردية او كأعضاء متحدين في جماعة ذات حياة مشتركة ( كنيسة ) مع الدولة مكانة اساسية . اتخذت هذه القضية اتجاهات شتى عبر تاريخ الكنيسة فمن قائل بوجود علاقة الى قائل بانه لا توجد علاقة فقط ولا يجوز ان تكون هناك علاقة الى قائل يدمج الاثنتين معا . بالنسبة لجيل الأول للمسيحيين والذي جاء في اعقاب موت المسيح ، فان القانون الروماني اعتبر المسيحية كأحدى الشيع اليهودية .

عندما اتهم يهود كورنثوس بولس في سنة ( 51م ) امام غالليون ، فتن الوالي لاخائية لم يستمع لشكوى اليهود في امورهم الدينية التي تعدها بولس وطردهم من مجلس حكمه ، اما بالنسبة لبولس ، فحيث انه كان في نظر الوالي يهوديا مثله في ذلك مثل متهميه فان الاحتفالات بين بولس واليهود في نظر غالليون اختلافات في تفسير امور دينهم وهذا ما اتح لبولس الاستمرار في خدمته الرسولية وفي نشر الرسالة المسيحية ليس فقط في ولايات الامبراطورية الرومانية بل وفي عاصمة الامبراطورية ( اعمال الرسل ) 28 : ( 30 - 31 ) ولقد انعكست سعادته العدالة الرومانية التي اخترها شخصيا على اصراره على ان الولاة الرومانيين خداما لله ( رومية 6 : 13 ) .

وهناك جانب آخر لصورة علاقة المسيحيين بالدولة لقد استهلت علاقتها مع القانون الروماني بعقبة خطيرة بسبب ان مؤسسها قد ادين . ونفذ فيه حكم الموت الذي اصدره الوالي الروماني وقد لخصت النهضة التي وجهت اليه في الكتابة التي علقت فوق راسه على الصليب ( ملك اليهود ) وأيا كان ما قاله يسوع عن مملكته لبيلاطس ، فان الرواية الوحيدة المعروفة بالنسبة للقانون الروماني هي انه قاد حركة ضد سلطان قيصر الروماني .

وعندما اراد المقاومون لبولس في تسالونيكي ان يثيروا فتنة وشغبا كثيرا ضده وضد رفقائه المحليين ، كان اقصى ما في استطاعتهم ان يفعلوه انهم مضوا الى السلطات المدنية وقالوا عنهم : " ان هؤلاء الذين فتنوا المسكونة حضروا الى ههنا وهؤلاء كلهم يعملون ضد احكام قيصر قائلين انه يوجد ملك اخر ( يسوع ) ( اعمال الرسل 37: 6 - 7 ) ومع ان يسوع حكم عليه الموت ونفذ الحكم . فكيف يقول اتباعه انه ملك .

كان ذلك سوء تقصير مآكر للحقيقة ومن المسلم ان بولس لم يكن مسؤولا عن هذه الاحداث الا انه حفظة القانون والنظام ( السلطات المحلية ) كان من الطبيعي مثل هذه الامور ان تكون موضع اهتمام منهم ويستنتجون منها ما يشاؤون وعلى هذا فلقد كان من الطبيعي ان يأخذ المسيحيون حذرهم واحتياطهم في سلوكهم العام في هذه المجتمعات التي يعيشون فيها ، لذلك

## اقوال لاهوتية – الاب باسيلوس محفوظ

كانوا لا يشتركون في الحياة السياسية والدينية التي كانت سائدة حين ذاك في العالم اليوناني والروماني الذين كانوا يعتبرونه شريرا وفسادا ومع انهم كانوا مضطرين ان يعيشوا في العالم وان يتلاءموا الى حد ما مع جيرانهم لكنهم يحرصون على ألا يتدنسوا بشرور الدنيا ، ويصرون على اتباع السيد المسيح رغم كل الظروف وعلى هذا الاساس كانوا يمتنعون عن عرض منازلهم امام المحاكم العامة او يتولوا الوظائف العمومية او ان يدفنوا موتاهم في المقابر العامة او يحضروا المبارزات او يخدموا في الجيش الروماني وفوق كل ذلك كانوا يرفضون ان يسجدوا لصورة الامبراطور وهو الامر الذي كان شائعا كأسلوب للتعبير عن ولاء للدولة لقد كان المسيحيون يعتبرون ذلك عادة صنمية وخيانة للرب يسوع المسيح ولذا لم يكن المسيحيون الاولون فوضويين او ثوارا على الدولة لكنهم كانوا لا يشتركون في الامور التي كانت تتعارض مع ولائهم للمسيح كما اشرنا سابقا ولم يكونوا يعترفون انفسهم ضد الدولة لكن كانوا يرون ان مبادئهم اسمى مما كانت الدولة تنادي به . وفي نفس الوقت كانوا يطيعون الدولة فيما لا يتعارض مع مبادئهم مثل دفع الضرائب مثلا على وجه العموم لم يكن لديهم موقف ثابت ازاء الدولة فأحيانا كانوا يخضعون لها سلبيا وحيانا كانوا يعرضون او يقامون مقاومة سلبية دون عنف لانه كان هذا السلوك اعتقادهم بانهم ليسوا من هذا العالم وكانوا يستندون في ذلك الى أقوال السيد المسيح وبولس الرسول ، فالعالم ( الحاضر ) كان شريرا ومعاديا كانوا ينتظرون عالما افضل سماويا ، هكذا نرى ان

الظروف التي عاشت فيها الكنيسة وبالنظرة الاسخاتولوجية التي سيطرت على فكرها عبرت عنها في قوانين إيمانها الاولى .

كان لها التأثير الكبير على الفكر الاخلاقي المسيحي وهذا هو سر نجاحها وانتصارها على الوثنية لا قوة السيف بل بقوة الروح والمحبة وهذه الروح المتسامحة تقدر ان تعيش في كل مكان وحتى تحت سيطرة نظام الحكم المعادي لها مثلا ( الاتحاد السوفياتي ، سابقا ) .

### موقف بولس الالهي والآباء القديسين من الدولة

الرسول بولس يعطي من خلال رسالته الى رومية اول انطباعات روحية مسيحية عن علاقة المسيحيين بالدولة عامة لان اليهود في صميم ايمانهم لا يعترفون باي ملك اممي بل يستهينون بكل الامم وكل ملوكهم ويمتنعون عن دفع الجزية وبذلك أنشأوا في ذهن الدولة روح عداوة ونفور لكل دين ، من هنا تأتي تعاليم بولس الرسول رائعة حقا وجديدة وجديرة بالاحترام لا من المسيحيين فقط بل من كل دولة .

ايضا هناك اشارات عديدة في رسائل الرسول الالهي بولس تشير الى توعية العلاقة بين المسيحيين والدولة منها رسالته الاولى الى تيموثاوس : " فاطلب اول قبل كل شيء ان تقام طلبات وصلوات وتشكرات لاجل جميع الناس لاجل

الملوك وجميع الذين في منصب لكي نقضي حياة مطمئنة صادقة في كل شيء لان حسن ومقبول لدى مخلصنا الله الذي ان الجميع يخلصون ووالى معرفة الحق يقبلون " (تيموثاوس 2: 1، 4) ايضا في رسالته الى تيطس ( 3 : 1 - 2 ) : " ذكرهم ان يخضوا للرياسات والسلطين ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح ولا يطعنوا في احد ويكونوا غير مخاصمين حلماء مظهرين كل وداعة لجميع الناس " .

ايضا في رسالته الى رومية 13: 1-7) اما بقية ما ورد في الرسائل الاخرى غير رسائل بولس الالهى فهي منقولة عن الرسول أو مأخوذة من روح رسائل بولس ولغته ( 1 بطرس 2 : 13 - 17 ) .

اذا يحصر بولس الرسول طاعته للسلطات في مفهوم على انها طاعة لتدبير الله سواء المعاملة سيئة او حسنة لان ليس احد مثل الرسول بولس الالهى تضايق من السلطان الرومانية وبالرغم من كل ذلك عندما ارسل الى تلميذه تيطس رسالة وهو سجين مقيد بالسلاسل ينتظر حكم الاعدام كتب له يقول : " ذكرهم ان يخضوا للرياسات والسلطين ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح " ( تيطس 3- 1 ) ولان الطاعة للرؤساء هي امر من الله وتدبير منه وجب ان تمتد الطاعة لهم الى الصلاة من اجلهم وشكل مستمر وثابت هذا ما هو حاصل في كل خدمة القداس الالهى ( طقس بيزنطي ) وذلك بحسب وصية الرسول الالهى بولس ( 1 تيموثاوس 2: 1 - 3 ) .

بهذا تعتر الكنيسة كمؤسسة دينية في اعتبار الرسول بولس على انها شريكة مع الدولة في قيامها وفي ثبات الحكم فيها وسلامة المسؤولين ولكن ليس انها شريكة في الحكم اما الافراد المسيحيون فلهم الحق الوطني " كمواطنين " وليس كمسيحيين ان يشتركوا في سياسة الحكم وفي مختلف مؤسسات الحكم وان يقوموا بالاعمال الصالحة الخيرية التي تفرح الحاكم وتكون بينهم وبين الحاكم المودة والمديح المتبادل هكذا فبالصلاح ينبع من اخلاقنا المسيحية وطاعتنا ووداعتنا ومحبتنا للاخرين وذلنا بلا حساب يجعل المسيحي بالنسبة للدولة وضع جيد ومضمون النتائج .

اما بالنسبة للمسيحي الذي يفعل الشر ضد الدولة كأن يكسر نظامها او يخولها او يختلس اموالها او يتجسس عليها هنا يقع المسيحي تحت الغضب ، غض الله ، فيضطر الحاكم ان ينتقم لقانون الدولة الذي كسره ذاك لانسان متعمدا وذلك ان كل مسيحي يعمل شرا يسيء الى الدولة ويقع ايضا تحت غضب الله وغضب الحاكم الاولي هنا والثانية يوم الدينونة هنا يرسي بولس الالهي حجر الاساس في علاقة المسيحي بالدولة على اساس انه مواطن منتفع ومسؤول الا ان بولس الالهي يطلق على الحكام انهم خدام الله ( رومية 6: 13 ) ولكن خدام الله هنا جاءت معنى ( ليتورجية ) حيث ليتورجوس هو خادم عبادة الله ، خادم تمجيد الله ، خادم هكيل وكنيسة الى هذا الحد رفع بولس الالهي من شأن الحكام اثناء خدمتهم اذا اعتبرها عملا الهيا يختص خدمة الله فسامها



ليتورجية ، هذا ليس مغالاة في تمجيد الحكام بل تمجيد في العمل والخدمة لتحسين وحفظ حياة الشر فالسلطة اداة في يد الله تقوم بواسطتها بعملها الالهي في حفظ وصون الانسان والترقي .

اذا اصرار بولس الالهي على الطاعة والخضوع للسلطات لم يكن خوفا ولا احتراما او طاعة للانسان بحد ذاته مهما كان هذا الانسان رئيسا او ملكا ولكن هي طاعة الله في من يمثله في السلطة الزمنية لكن لا يمكننا ان ننسى قانون الرسل القائل : " ينبغي ان يطاع الله اكثر من الناس " ( اعمال الرسل 5 : 29 ) . هذا يعني ان السلطات او الحاكم اذا امر المسيحي امرا يخالف اوامر الله فلن يطيعه حتى ولو حسب ثائرا على السلطات وحتى ولو هدد بالموت ، فقانون الرسل هو امر رسمي العصيان الديني لكل امر او توصية تخالف وصايا الله المفروضة على المسيحي لاطاعتها مثلا اذا كان في بلد المسيحي والشعب كله مسيحي والملك نفسه مسيحي فاسدا هو وسلطته هذا يحتتم على الشعب المسيحي ان يكون كله في حل من هذه السلطة الفاسدة وايضا ان يكون وجبت عليه معارضته وحتمية اسقاطه ايضا اما اذا كان المسيحيون في بلادهم اقلية والسلطة غير عادلة فواضح ان الامر بالنسبة لهم ضيقة وتجربة لا بد من احتمالها من يد الله حيث الطاعة واجبة الا اذا امتدت يد السلطة لتجبر المسيحي ان ينكر مسيحه هنا يجب عدم الطاعة وحل الاستشهاد ويذهب القديس يوحنا الذهبي الفم في شرحه لكلمات بولس الالهي بالقول : " ماذا تقول هل حاكم معين هو من الله يجيب : انا لا اقول ذلك لانني الآن لا أتعرض

للحكام كأفراد بل لمبدأ السلطة نفسه ان ما أقوله هو ان الحكمة الالهية والتدبير الالهي وليست الصدفة هي التي وضعت النظام بان هناك دولة وان البعض يتولى السلطة والآخرين يخضعون لها هذا فضلا عن ان الله قد جعل الناس اجتماعيين بطبعهم وحيث ان لا يمكن ان يقوم مجتمع ما لم يكن هناك من يوجه الجميع للسعي نحو الصالح العام ، لذلك فكل جماعة متحضرة لا بد ان تكون لها سلطة تحكمها وهذه السلطة مثلها مثل المجتمع نفسه مصدرها الناموس الطبيعي وبالتالي فمصدرها الله .

ان الدولة في فكر القديس يوحنا الذهبي الفم قيادة ورئاسة وفن من فنون هذا الدهر هذه القيادة ان وجهت خطأ أدت الى تدعيم مملكة الشيطان على الارض ولكن ان وجهت بشكل سليم فانها تعيد ملكوت الله الى هذا العالم وتعيد الحالة الفردوسية التي كانت قبل السقوط حيث لم يكن هناك أي سلطة او عبودية إلا أننا لا يجب ان نعتبر السلطة قوة دون ضوابط ففي الحقيقة ما دامت هذه السلطة تتخذ العقل والمنطق اساسا لها فبالتالي لا بد انها تستمد سلطة الالتزام من النظام الاخلاقي الذي مصدره الاول والاخير هو الله .

لذا الذهبي الفم يؤكد على ضرورة السلطة الزمنية وعلى دورها الايجابي وكونها دواء مهما للوضع البشري ومسميا اياها خادمة لله عندها بالذات يصبح واضحا ان هذا الخادم هو ادنى من السلطة الكنسية .



اما الدولة في نظر اوغسطين فهي جهاز يعمل في اطار طاعة الله ومدعوة من الله لتحقيق مقاصد الله البشرية وراى ان الدولة بدون عدالة تصبح عصابة لصوص وايضا راي توما لاکويني ان فكرة الدولة متواجدة في الطبيعة الانسانية ان اساس السياسة المباشر هو تواجد جماعة تعيش معا في المجتمع والانسان كائن سياسي لانه كائن اجتماعي متواجد في المجتمع يخضع للقانون الالهي والعقل والسلطة السياسية .

يعتقد توما الاكويني ان السلطة هي نظام بين البشر لاجل البشر الا انه لا يجوز ان يصل سلطان السلطة على البشر الى فقدان الذاتية الشخصية لبعض البشر فالسلطة هنا هي جزء من الطبيعة ذاتها فلو وجد حكم فاسد لان الملك فاسد فالله اوجده لعقاب البشر اما دور المسيحي في مواجهة الفساد بعد كل المحاولات هو الاستشهاد من اجل الحق .

### الدولة في فكر المطران جورج خضر

لم تحتل الدولة مكانا في فكر يسوع الناصري هذا ما يراه المطران جورج خضر اذ يطرح سؤالا : " هل جاء المسيح حقا يشرع الحكم الدنيوي ام اراد امر آخر ؟ النصوص التي بين ايدينا في الاناجيل الازائية ( متى ، مرقس ، لوقا ) لا تدل على ذلك فالسؤال الذي طرحه الفريسيون على المعلم كان دافعه ان يصطاده بكلمة محاولة احراج أتت من خبثهم اذ ذاك قال لهم لمن هذه

## افوال لاهوتية - الاب باسيلوس محفوظ

الصورة والكتابة؟ قالوا لقيصر فقال لهم: " اردوا لقيصر ما لقيصر والله ما لله " ، فيتابع المطران خضر فيبدو المعنى هكذا: انتم مرتبطون بالولاء لقيصر انا لا ادعوكم الى المقاومة ذلك ان الملكوت الاتي بي وبانجيلي هو المجال الذي لا بد لكم ان تنتقلوا اليه اذا اردتم الخلاص . المسألة الكبرى ليست هنا انها في ان تدخلوا الملكوت او لا تدخلوه فاذا ابتغيتم دولة فانتم لستم لها الا بمقدار انسيابها لله .

لاحظ يسوع تنظيم الدنيا وما اولاه قيمة نراه يدفع الضريبة جل ما في الامر انه لم يشأ ان يخالف القانون لانه لو فعل يكون قد نسب اهمية كبرى الى النظام المدني اذا يسوع لم يعظم السلطات كان يحتقرها بعامة ولقد اتى ذلك في سياق حديثه عن يوحنا المعمدان اذ قال في شأنه: " ماذا خرجتم الى البرية تنظرون؟ قسبة تهزها الريح؟ بل ماذا خرجتم ترون؟ رجلا يلبس الثياب الناعمة؟ ها ان الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في قصور الملوك " متى 11: 7 - 8 ) " لذا الدولة شيء صغير جدا اذا قيس بالملكوت الحال بيننا وفينا ليس من قياس ممكنين الواقعيين ( الدولة والملكوت ) لان السلطة شيء خارجي بالنسبة للانسان الباطن وحقيقته وابعاده ولان الملوك والحكام يعيشون في الترف بقدر ما كانوا كذلك يشملهم غضب الله هنا يستتبع ان الصوت النبوي يدوي امام انحراف النظام وعدم انسانيته وتاليا ان من فوض اليه تبليغ الرسالة الالهية مسافة من الحكم ليكون حرا منه ويوبخه عند الاقتضاء . الروحانيون ضمير الدولة واذا غدوا تابعيها فلا رسالة لهم يصيرون من باطلها "

من هنا يولي المطران جورج خضر اهمية كبرى للعمل النضالي في سيل  
اللحمة والحرية مع لان الدولة اذا انحرفت تكسر الانسان الضعيف وتقيم  
الكثيرين في اليأس من امرهم وتاليا في رفض الله . اذا فعلى الدولة برأي  
المطران خضر ان تعمل على تدبير شؤون الناس كما الناس هم ايضا تعمل  
على اختيار الأولويات واولية للفقراء وما يعانون منه ذلك لا ينتهي اطعامهم  
وتطبيبهم وايوائهم وتدريس اولادهم لكن الدولة عملها هو تثقيف المواطن  
الدولة خادمة الناس .